جامعة الشهيد حمة لخضر- الوادي
قسم العلوم الإنسانية
المحاضرة : رقم 05

السنة الثانية 2022/2021
مقياس: المغرب الإسلامي
الدكتور سليم حاج سعد

الدولة الفاطمية بالمغرب الاسلامي[296-362هـ]

لقد قامت الدولة الفاطمية ببلاد المغرب - وفق خطة مرسومة من قِبل دعاة الشيعة - على أكتاف قبيلة «كتامة»، التي تنتمي إلى بربر «البرانس»، وتميزت عن غيرها من القبائل بكثرة عددها، ومنعة منطقة سكناها بجبال «الأوراس» بين مدينتي «بجاية» و«قسنطينة»، فضلا عن عدم خضوعها لسلطة الولاة اعتزازًا بمنعتها وقوة بأسها.

وقد وقف زعماء الشيعة على ما اتصفت به هذه القبيلة، واختار «ابن حوشب» رئيس مركز الدعوة الشيعية باليمن «أبا عبد الله الحسين بن أحمد الشيعي» للاتصال بوفد «كتامة» بموسم الحج، لنشر الدعوة الشيعية بالمغرب، وإقامة الدولة المرتقبة هناك. وقد تم لقاء «أبى عبد الله» بوفد «كتامة» بمكة، وجعله هذا الشيعي يبدو كأنه جاء مصادفة، وبدأ يتعرَّف أحوالهم وميولهم المذهبية، ولم يفصح عما أضمره وما جاء من أجله، ونجح في استمالتهم والسيطرة على قلوبهم بمكره ودهائه وعلمه وجدله، ثم تظاهر بعد انقضاء موسم الحج برغبته في السفر معهم إلى «مصر»، للتدريس ، فاصطحبوه معهم، فلما وصلوها، ألحوا عليه بمصاحبتهم إلى بلادهم، فوافقهم، وذهب معهم إلى المغرب سنة (289هـ)، واتخذ من «إيكجان» مستقرا له، لأنها نقطة التقاء حجاج «الأندلس» و«المغرب الأقصى»، والمتوجهين لأداء فريضة الحج. بدأ أبو عبد الله في تنفيذ خطته، وتظاهر بتعليم الصبية، وإلقاء دروسه عليهم، فزاده ذلك مكانة ومنزلة بين أبناء «كتامة»، وذاع صيته بين القبائل، وقصده البربر من أماكن متفرقة، لينهلوا من علمه، ويستفيدوا من نصائحه، ثم عمد أبو عبد الله إلى مصارحة بعضهم - بعد أن اطمأن إليهم- بحقيقة أمره، ورغبته في إقامة دولة لآل البيت تقوم على أكتاف قبيلة كتامة، لأن الروايات - كما ادَّعى لهم - جاءت بذلك، وأخبرت عما ينتظرهم من عز الدنيا وثواب الآخرة. وأخذ أبو عبد الله على عاتقه تنظيم صفوف أبناء «كتامة» وبعض أبناء القبائل الأخرى، وقسَّمهم إلى سبعة أقسام، وجعل على رأس كل قسم منها داعية يطمئن إليه، فاستطاع بهذا الأسلوب العملي إقامة مجتمع يدين بفكرة واحدة؛ هي إقامة الدولة المثالية التي يحكمها إمام من آل البيت.

وقد اتخذ أبو عبد الله الشيعي من أبناء «كتامة» جندًا يدافعون عن الدعوة، ويهاجمون القوى السياسية الموجودة بالمنطقة، وهى: «الأغالبة» بالمغرب الأدنى، و«الرستميين» بالمغرب الأوسط، و«بنو مدرار» بسجلماسة بجنوب «المغرب الأقصى» وبقايا «الأدارسة» بمدن «المغرب الأقصى»، وترتَّب على ذلك

دخول «أبي عبد الله الشيعي» في عدة معارك مع هذه القوى، كانت أشهرها معركة «كنيونة»، التي انتصر فيها على «الأغالبة» سنة (293هـ)، ثم توالت انتصاراته بعد ذلك، ودخل مدينة «رقادة» وقضى على نفوذ «الأغالبة»، ثم دعا «المهدي الفاطمي» إلى «المغرب» لتسلم مقاليد الأمور؛ فلبى الدعوة، وتخفَّى في زي التجار حتى لا يقع في قبضة العباسيين، ودخل مدينة «رقادة» سنة (297هـ)، ثم بويع بالإمامة.

الخلفاء الفاطميون بالمغرب:

حكم **أربعة** خلفاء فاطميين بلاد «المغرب» في الفترة من سنة (297هـ) إلى سنة (365هـ)، وكان «المعز لدين الله الفاطمي» هو آخر هؤلاء الخلفاء، حيث انتقل بالدولة إلى «القاهرة» التي اتخذها عاصمة جديدة للفاطميين، بعد أن تم له فتح «مصر» على يد قائده «جوهر الصقلي» سنة (358هـ)، والخلفاء الأربعة هم:

1 - **المهدى: عبيد الله أبو محمد** [297 - 322هـ].

2 - **القائم: محمد أبو القاسم** [322 - 334 هـ].

3 - **المنصور: إسماعيل أبو طاهر** [334 - 341هـ].

4 - **المعز: معدّ أبو تميم** [341 - 365 هـ].

وقد وُلد «المهدي» أول الخلفاء بالعراق سنة (266هـ)، وتوفى بالمهدية سنة (322هـ)، ثم تلاه ابنه «محمد» الذي ولد «بسَلَمْيه» في المحرم سنة (278هـ)، ورحل مع أبيه إلى «المغرب»، وتولى الإمامة من بعده، ومات في سنة (334هـ)، فجاء من بعده ابنه «إسماعيل» الذي وُلد «بالمهدية» في الليلة الأولى من جمادى الآخرة في سنة (303هـ)، وبويع له في شوال سنة (334هـ) وتوفى يوم الأحد في الثالث والعشرين من شوال سنة (341هـ)، وكان فصيحًا بليغًا، خطيبًا حاد الذهن، حاضر الجواب، ثم جاء «المعز» آخر الخلفاء الفاطميين بالمغرب، فتولى الأمر بعد أبيه في شوال من العام نفسه، وكان عمره أربعًا وعشرين عامًا، وقد وُلد يوم الاثنين 10 من رمضان سنة (319هـ)، وكان أول الخلفاء الفاطميين الذين دخلوا «مصر» وانتقلوا بالخلافة إليها، ومكث بها عامين وتسعة أشهر.

بعض المشكلات الداخلية:

حين قدم «المهدي» إلى بلاد «المغرب»، وجد أن داعيته «أبا عبد الله الشيعي» قد استحوذ على قلوب الناس فيها، وأصبح ذا نفوذ وسلطة كبيرين بالمنطقة، فأراد «المهدي» أن يحد من سلطاته ونفوذه، فأنقلب عليه «أبو عبد الله» وتآمر ضده، وجمع زعماء «كتامة» وأخبرهم بتشككه في شخص «المهدي» وأنه ربما يكون شخصًا آخر غير الذي دعا إليه، فبلغ هذا الأمر «المهدي»، فتخلص منه بالقتل، فسخط الكتاميون وثاروا، وأتوا بطفل صغير وقالوا: إنه «المهدي»، فحاربهم «المهدي الفاطمي» وقتل هذا الطفل.

ثم تعرضت «المغرب» في عهد «القائم بالله» وابنه «أبى العباس» من بعده لثورة «أبى يزيد مخلد بن كيداد اليفرني»، الذي ينتمي إلى قبيلة «يفرن» الزناتية، وقد ولد بالسودان، اتصل بالإباضية، ومن ثَم هاجم ما استحدثه المذهب الشيعي على المجتمع المغربي، واجتمع الناس حوله، ورحل إلى «جبال

الأوراس» عقب وفاة المهدي فانضمت إليه جموع القبائل، فقام بثورته واستولى على العديد من المدن، واستغرقت ثورته نحو أربعة عشر عامًا، فشملت عهد «القائم بالله» كله، وعامين من عهد «أبى العباس»، الذي تصدى لها وتمكن من القضاء عليها وعلى زعيمها «أبى يزيد»، وسجل انتصاره هذا بإنشاء مدينة «المنصورية» سنة (337هـ).

العلاقات الخارجية:

قام الفاطميون بحملات متكررة على «مصر» للاستيلاء عليها، ففشلت جميعها، إلا حملة «جوهر الصقلي» الذي نجح في دخول «مصر» في سنة (358هـ) ثم أسس بها مدينة «القاهرة»؛ لتصبح عاصمة الفاطميين، فانتقلت إليها الأسرة الفاطمية وباتت «القاهرة» عاصمتهم حتى سقوط دولتهم. وقد سعى الفاطميون إلى بسط نفوذهم على بلاد الأندلس، بالدعوة تارة، وبالحروب أخرى، ولكن جهودهم ضاعت هباءً، ولم تجد دعوتهم صدى في نفوس الأندلسيين من أهل السنة، فضلا عن أن حكام الأندلس وقفوا لهم بالمرصاد وحصنوا بلادهم، وعززوا أسطولهم، فتراجع الفاطميون عن ذلك، واتجهوا إلى «مصر». واستهدف الفاطميون من اتخاذ «مصر» قاعدة لحكمهم تحقيق الأمن والاستقرار لوجودهم، خاصة بعد أن اشتعلت في وجوههم الثورات الخطيرة التي كادت تودي بكيانهم على أرض «المغرب»، فضلا عن أملهم في تحقيق أهداف سياسية واقتصادية في «مصر»؛ إذ أنها بموقعها وثرواتها وإمكاناتها تحقق لهم ما يريدون من مال وثروات وازدهار اقتصادي، كما أن الاستيلاء عليها يعد ضربة قاصمة للعباسيين الذين قتلوا كثيرًا من أبناء البيت العلوي ولذا أرادوا الانتقام منهم والثأر لأنفسهم.

<u>النظم الفاطمية:</u>

- الخلافة:

قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة عصمة الإمام، وأسس خلفاؤها لهذا الغرض مدارس خاصة لتعليم عقائد مذهبهم الذي يقوم على تقديس الأئمة، وحاولوا نشرها في «مصر» و«اليمن» و«بلاد فارس» و«الهند» وفى غيرها من أنحاء العالم الإسلامي. وقد تلقَّب الخلفاء بألقاب كثيرة منها: «الخليفة الفاطمي»، و«الخليفة العلوي»، و«أمير المؤمنين»، و«الإمام»، و«صاحب الزمان»، و«الشريف القاضي»، وساروا على نهج الأمويين والعباسيين في تولية أبنائهم ولاية العهد؛ فكان الخليفة إذا شعر بدنو أجله، يعهد بالخلافة إلى أحد أبنائه، ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته، فلما تسرب الضعف إلى الخلافة الفاطمية في عهد «المستنصر»، أصبح اختيار الخليفة بيد القادة وكبار رجال الدولة.

- الوزارة:

كانت الوزارة في العصر الفاطمي الأول (308 - 465هـ) وزارة تنفيذ، لأن الخلفاء كانوا أقوياء، ويديرون أمور الدولة بأنفسهم، ثم تحولت بمصر في سنة (466هـ) إلى وزارة تفويض، وبات الخلفاء منذ ذلك العهد - نظرًا لضعفهم تحت نفوذ الوزراء وسيطرتهم.

- الكتابة:

كانت الكتابة تلي الوزارة في الرتبة في عهد الفاطميين، وكان الخلفاء يسندونها إلى مَن أنسوا فيهم الكفاءة والقدرة على معالجة الأمور، وعُنى الفاطميون عناية فائقة بالشعراء والكتاب وغيرهم من رجال الأدب، لنشر مذهبهم وإذاعة أبهتهم، وكان اختيار الكاتب يتم - عادة - من بين مَن اشتهروا بسعة الاطلاع وجودة الأدب، وامتازوا بدقتهم ومقدرتهم في فن الإنشاء.

- **الدواوين:** كانت هناك عدة دواوين، على رأس كل منها موظف كبير، ومنها: «ديوان الجيش»: وكانت تعرض على صاحبه شئون الأجناد وخيولهم، وما إلى ذلك. و«ديوان الكسوة والطراز»: ويتولاه أحد كبار الموظفين من أرباب الأقلام. و«ديوان الأحباس»: وهو يشبه وزارة الأوقاف حاليا. و«ديوان الرواتب»: ويشبه وزارة المالية الآن.

بناء مدينة المهدية:

حين بويع «المهدي» بالخلافة بالمغرب اتخذ من مدينة «رقّادة» عاصمة له، إلا أن الظروف التي أحاطت به في بداية عهده، جعلته يفكر جديا في اتخاذ عاصمة جديدة لدولته الوليدة، ليتحصن بها من مؤامرات أعدائه، فنجح في اختيار منطقة تبعد عن «القيروان» ستين ميلا تقريبًا، يحيط بها البحر من جهات ثلاث، وهى على شكل يد متصلة بزند، فأطلق عليها اسم: «المهدية»، وشرع في تخطيطها وتشييد مبانيها، وجعل لها بابين من الحديد، وأقام بها ثلاثة وستين صهريجًا، لتزويد المدينة بالمياه اللازمة، وبنى بها دارًا لصناعة السفن، فصارت مرفأ مهما وسوقًا رائجة للسلع التي كانت تحملها السفن إليها من «الإسكندرية»، وقد فرغ من بنائها سنة (305هـ)، ثم انتقل «المهدي» للإقامة بها في سنة (308هـ)، فاتسعت جنباتها، وزادت أسواقها، وازدهرت التجارة بها، وظلت عامرة، وآهلة بالسكان، حتى استولى عليها خليفة الموحدين «عبد المؤمن بن على» سنة (555هـ).

النشاط المذهبي للفاطميين ببلاد المغرب:

شهدت المنطقة طوال عهود الخلفاء الفاطميين في المغرب صراعًا مذهبيا بين المالكية - غالبية أهل السنة - وبين الشيعة، الذين استخدموا كل الوسائل الممكنة، لنشر مذهبهم وطمس معالم المذاهب الأخرى، وجعلوا الوظائف قاصرة على الشيعة، واستبدلوا قواعد مذهبهم بأحكام المذهب السني، وعقدوا المجالس والمناظرات لإقناع أهل البلاد بصحة مبادئهم، ثم لجئوا إلى العنف والرعب والاضطهاد حين فشلت وسائلهم في إدخال سكان البلاد في مذهبهم، ففشلت هذه الوسائل أيضًا، حتى عاد المذهب السني مذهبًا رسمياً للبلاد في
عهد «المعز ابن باديس».